تعريب بلاد المغرب

الدكتور محمد شباضة
أستاذ بكلية اللغات والآداب والفنون جامعة ابن طفيل، القنيطرة
الباحثة بشرى البوباري
طالبة باحثة بسلك الدكتوراه، كلية اللغات والآداب والفنون
جامعة ابن طفيل القنيطرة
المغرب

ملخص:

نروم في هذا المقال تسليط الضوء على الوضع اللغوي عبر العصور، ومن المؤكد حسب الكثير من الباحثين أن عملية تعريب بلاد المغرب استغرقت فترة زمنية طويلة أصبحت فيها الدولة جزءا من الإمبراطورية الإسلامية المؤسسة على الدين واللغة، وتذهب المصادر التاريخية أن دخول الفاتحين إلى الأندلس كان سنة 91 ه ــ وبذلك كان إعلانا رسميا عن خضوع المغرب لسيادة الخلافة العربية الإسلامية، وفي المقابل فقد عمل الاستعمار في المغرب بكل الطرق على تغيير بنية التعليم والتربية كجزء من مخطط مدروس للفصل بين الإنسان المغربي ومقوماته الثقافية واللغوية . حيث كرست فرنسا واسبانيا هيمنتهما اللغوية، مما أسهم في تشكيل المنظومة الفكرية والثقافية واللغوية به، والتي انعكست آثارها بشكل واضح على الحياة الاقتصادية والاجتماعية تجلى تأثير ذلك في تشكيل الخريطة اللغوية بالمغرب.

الكلمات المفاتيح: التعريب – الإمبراطورية الإسلامية – الاستعمار – الخريطة اللغوية

Abstract:

we aim; In this article ; to shed light on the linguistic situation through the ages. According to many researchers, it is certain that the process of Arabisation of Morocco take a long period of time in which the state became part of the Islamic empire based on religion and language. Historical sources claim that the entry of the conquerors into Andalusia was in the year 91 AH, which was an official announcement of Morocco's submission to the sovereignty of the Arab-Islamic Caliphate, on the other hand, colonialism in Morocco tried in every way to change the structure of education as a part of a deliberate plan to separate Moroccan man from his cultural and language components. France and Spain established their linguistic hegemony, which contributed to the formation of the intellectual, cultural and linguistic system in Morocco, the effects of which were clearly reflected in economic and social life, and the impact of this was manifested in the formation of the linguisic map of morroco.

keywords: Arabization – Islamic Empire – Colonialism – Linguistic map

مقدمة:

لقد عني الكثير من الدارسين بتاريخ المغرب، ورغم ذلك فإنه لا زال في أمس الحاجة إلى الكثير من البحوث والدراسات لإجلاء الكثير من القضايا الغامضة وكشف الغبار عليها. ومنها قضية تعريب المغرب.

إذ إن دراسة قضية التعريب وكشفها يعد من أهم المباحث التي ينبغي البحث في إشكالاتها المختلفة، لاسيما وأنها تكاد تكون أبرز القضايا التي وسمت تاريخ المغرب، هذا بالإضافة إلى كون كشف هذا التاريخ وتجليته للعيان ما هو إلا قراءة في تاريخ تشكل الشخصية المغربية وما طبعها من خصوصيات عبر الزمن. بالتأكيد أصبح موضوع تعريب المغرب محط خلافات بين المؤرخين والمفكرين على حد سواء، بل يمكن اعتبار هذا الموضوع من أهم المواضيع اللغوية المعاصرة.

1- تعريب المغرب بعد الفتوحات العربية الإسلامية

من المؤكد حسب الكثير من الباحثين ومنهم الأستاذ عبد الله العروي أن تعريب بلاد المغرب استغرقت فترة زمنية طويلة أصبح فيها جزءا من الإمبراطورية الإسلامية مؤسسة على الدولة واللغة، ومن بين المناطق التي استهدفها الفتح بلاد المغرب باعتبارها امتدادا لمجال الهيمنة البيزنطية ـــ وقد حققت فيها نجاحا كبيرا انتهى بدخول الفتح إلى الأندلس سنة 91 ه ـــ والذي يعتبر إعلانا رسميا عن خضوع المغرب لسيادة الخلافة العربية الإسلامية، ودخول أغلب سكانه في الاسلام[1]، وواضح أن عملية الفتح استغرقت مدة زمنيه طويلة، حيث بدأت سنة 21 ه مع فتح برقة ولم تتوقف إلا ما بعد سنة 90 ه مع الانتهاء من السيطرة على المغرب الأقصى[2]، ويتفق العروي مع هذا الطرح، حيث يقول "تطلب إسلام البربر وتعريبهم زمنا طويلا، وتطلب قرونا بعد الفتح العسكري على يد أمراء بربر بعد أن استقل المغرب سياسيا عن الشرق " [3]، والحال أن تتبع مناطق استقرار العرب في المغرب صعب تحديده نظرا لإغفال المصادر العربية هذا الجانب، اللهم إلا بعض الإشارات القليلة في بعض الكتب التاريخية، يذهب العروي إلى كون المغرب أضحى من الناحية القانونية ولاية تابعة لدولة الخلافة بعد سنة 93[4]، والأكيد حسب العروي أن البربر قاوموا العرب الفاتحين مقاومة عنيفة [5]، و يبدو أن تعويض لفظ المغرب الأسماء الرومانية القديمة يوحي أن تعريبا حصل بالفعل[6]، فالعرب جعلوا المغرب أدنى وأوسط و أقصى وصحراء، وصنفوا الأمازيغ إلى بتر وبرانس، واتجهوا ينقبون في أصولهم و طرق عيشهم. ومن المؤكد أن المغرب حسب مجموعة من المؤرخين والجغرافيين يمتد من برقة إلى طنجة[7].

لقد كانت أيام الموحدين عصر تقدم وأمن وسلام، وقد أخذت البلاد تضم العرب الهلاليين ومن معهم، وبدأ انتشار الصحف العربية في كل الأوساط. فها هو المؤرخ المصري السيد عبد العزيز سالم يصرح قائلا" لقد كان لغزو الهلاليين رغم مساوئه الكثيرة فضل كبير في تعريب البلاد ـــ وتخفيف حدة اللهجات المحلية في القرى البربرية"[8]، فانضم المغرب ليشكل العالم العربي الممتد من المحيط إلى الخليج، واللغة العربية في المغرب قد اختلفت عن لغة المشرق، وذلك طبيعي بحكم البيئة، ولكن هناك من ظل محافظا على اللغة العربية الفصحى، فحسب العبدري " عرب برقة اليوم أفصح عرب رأيناهم وعرب الحجاز أيضا فصحاء. ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره. وهم الى الآن على عربيتهم. ولم يفسد من كلامهم إلا القليل "[9]، ولا شك أن انتقال القبائل الهلالية، واستقرارها في بلاد المغرب لا يمكن إنكار دورها في استقرار الحياة الثقافية وتشر اللغة العربية بين سكانه. وتجدر الإشارة إلى كون العرب الذين انتقلوا إلى المغرب لم يكونوا كلهم من المتعاطفين مع بني أمية، بل كان منهم فقهاء ناقمين عليهم[10]، فعلى قول ابن خلدون فإن العرب الهلاليين[11] دخلوا إفريقيا، وكان وصولهم إليها سنة 443هـ/1053م، وكان أول الواصلين منهم بنو رياح وزعيمهم مؤسس بن يحي الرياحي.

إن أي حديث عن تعريب المغرب يجرنا مباشرة للحديث عن الفتح الإسلامي للمغرب أيضا، فأغلب البحوث التي درست تاريخ المغرب تجمع على أن الفتح الإسلامي كان وراء انتشار الإسلام واللغة والعربية[12]. فقد كانت النتيجة طبيعية أن يستعرب المغاربة بعد إسلامهم، ويتعلموا لغة التنزيل الذي هو دستور الإسلام، والمصدر الأول لجميع أحكامه وتعاليمه، فإنما بالعربية تفهم أصوله وفروعه، وتقرر شرائعه وأحكامه. [13]

ويعتبر المغرب من البلدان التي تأخر الفاتحون في الدخول إليها وفتحها لعدة عوامل، منها بعد المسافة عن مركز الخلافة بالمشرق، ثم كثرة الفتن التي شهدها المسلمون في المشرق، وعلى رأسها فتنة سيدنا علي كرم الله وجهه ومعاوية رضي الله عنه، وأيضا تلك المقاومة الشرسة التي واجه بها بربر المغرب الفتوحات الإسلامية، وهي مقاومة لم يشهد لها الفاتحون مثيلا في أي موضع آخر بشهادة الكثير [14]ـــ

لقد دخل العرب إلى بلاد المغرب موجات متتابعة، أولها كانت مع الفتح الإسلامي، ولعله من المفيد كخطوة أولى الإلمام بأحداث الفتوحات الإسلامية، لأنها وضعت أسس استقرار العرب بالمغرب، وبهذا تقرر مصير المنطقة، بل إنها تجاوزت في أهميتها ما كان يجري فيها من وقائع إلى ما هو أكبر عمقا. حيث تطورت الأمور في اتجاه آخر أفضى في النهاية إلى طي صفحة الشرق، مما أفرز بنية وواقعا محليا متميزا أبرز سماته الإسلام والتعريب.

ولا يخفى أن الفتح الإسلامي كان يستهدف أمرين:

- نشر الدين من جهة.
- ونشر العربية أداته ولغة القرآن من جهة ثانية. [15]

لقد بدأ انتشار الإسلام والعربية بين البربر منذ وطَأت أقدام العرب بلاد المغرب، وكان لعقبة بن نافع دور بارز في هذا الصدد " [16]، إلا أن هذه المرحلة الأولى لم تحقق كل أهدافها نظرا للظروف الصعبة التي واجهت عقبة بن نافع في فتح المغرب الأقصى.

وقد بالغ بعض الدارسين في قضية تعريب جل المغرب في عهد حسان بن النعمان، لأن الأمر لا يخلو من المبالغة خصوصا ونحن نعلم أن المغرب في هذه الفترة لم يكن مستقرا لا سياسيا ولا اجتماعيا، وهي من أهم شروط تعميم التعريب.

وأما قول صاحب البيان المغرب وعبد الله كنون من أن حسان بن النعمان كان الممهد لتقدم الثقافة العربية واستقرار الحضارة الإسلامية بالمغرب، فتعريب الدواوين ورسم اللغة العربية وجعلها لغة الدولة الرسمية، وبهذا أوجب على كل السكان المسلمين وغير المسلمين تعلمها أمر لا يخلو من مبالغة. [17]

وبعد هذه الفترة تم عزل حسان بن النعمان لأنه لم يحقق ما أراده الأمراء في المغرب، فبعث مكانه موسى بن نصير لأنه كان رجلا عارفا بخبايا الحروب، وفور تسلمه أمور القيادة كلف بتطهير إفريقية وإقليم الزاب من البيزنطيين والبربر المقاومين للفتح الإسلامي، وقد سار القائد موسى بن نصير إلى طنجة وفتحها، فدانت لسلطانه جميع هذه البلاد، وكان ذلك هو الفتح الثاني، والفتح الحقيقي للمغرب [18] ."

وقد شهد المغرب بدايات التعريب مع بقاء بعض العرب وبعض العلماء فيه ليعلموا أبناءه الإسلام والعربية لأنه باللغة العربية يفهم ويطبق الدين.

لقد انتعشت حركة التعريب في فترة موسى بن نصير كثيرا، وبدأت تشيد المساجد والتي شكلت مراكز للعلم إلى جانب كونها أمكنة للعبادة. وهذا أيضا جانب مهم في نشر العربية من خلال تخصيص الإدارة الجديدة لمعلمين وفقهاء وقراء لنشر الإسلام والثقافة العربية بين البربر الذين تقبلوا هذا الدين، فتمرسوا بتعاليمه السامية وآدابه العالية وأصبحوا من أكبر دعاته وأوثق أنصاره.. وحملوا الهداية الإسلامية والثقافة العربية إلى السواد كما هو معلوم ". [19]

إن ما يمكن استخلاصه من هذا الكلام هو أن مجمل المؤشرات والقرائن تدل على أن الحديث عن التعريب في هذه المرحلة سابق لأوانه، بل يعتبر ضربا من الخيال، لأن الظروف ربما لم تكن مواتية بعد للتعريب، لكن رغم سطحية التعريب في هذه الفترة إلا أنه شكل نقطة البداية، إذ، سيزداد رسوخا مع التطورات اللاحقة التي فرضت على المنطقة، وبعبارة أخرى فإننا بصدد فترة تمهيدية ككل البدايات، وبصفة عامة، فإن العامل السياسي والعسكري المتمثل في الانتصار في الفتوحات الإسلامية هو الذي مهد الطريق للغة العربية، وستدعمه عوامل أخرى دينية وثقافية واجتماعية وبشرية استطاعت فيما بعد أن تفتح الباب للغة العربية التي صارت، نظرا لما أحاطها من قوة وسيادة معنوية، لغة الإدارة والتأليف والكتابة والتعلم والتخاطب اليومي.[20]

ويمكن القول إن تجسيد واقع التعريب بالمغرب الأقصى بدأ مع قيام الدولة الإدريسية وما تلاها من الدول الأخرى وصولا إلى الدولة الموحدية والتي صار فيها التعريب جزء لا يتجزأ من كيان الدولة.

ومضمون هذا الكلام أن التعريب انتظر فرصته المناسبة التي ارتبطت بمجيء هجرات اجتماعية أخرى إلى المغرب، خاصة العناصر القيروانية والأندلسية التي ساهمت في تقوية التعريب، حيث بدأ يظهر عمليا الانفتاح على اللغة العربية وترسيخها داخل الدولة.

إن أول شيء يمكن ملاحظته عن الحملات التي نظمت لغزو المغرب الأقصى، أن الجيوش العربية كانت تنسحبي في غالب الأحيان دون أن تترك أثرا كبيرا للاستيطان العربي. [21]

يقول صاحب كتاب الإستقصا: " العرب الداخلون على أرض المغرب في ذلك العصر إنما كانوا يدخلون إليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم، فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار ثم ينقلب جمهورهم إلى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب، وإن بقي القليل منهم فإنما كانوا يستوطنون منه الأمصار دون البادية".[22]، ويتضح من خلال القراءة الأولية للمصادر أن معظم الجيوش الفاتحة كانت لا تمكث طويلا بالبلاد المفتوحة، وإنما تظل إلى جانب الوالي بشمال إفريقية في القيروان أو في المدن الكبيرة.[23]

وخلال القرن الثاني للهجرة بدأت الهجرة العربية تعرف تطورا ملحوظا، حيث بدأت أعداد المهاجرين من القبائل العربية تتزايد بشكل ملحوظ، إذ " انجذب العنصر العربي إلى إفريقية لأسباب كثيرة لعل أهمها سياسة الخلافة الأموية والعباسية التي شجعت هجرة القبائل العربية إلى الولايات والأمصار التابعة لها، حيث اعتبرت بلاد المغرب الإسلامي دار هجرة ".[24] فما إن فتح أقصى بلاد المغرب حتى انطلق الفاتحون يطلبون بلاد الأندلس، لأن الأندلس كانت جنة أغرت العرب والأمازيغ معا، لم تغر الأندلس العرب فقط، وإنما الأمازيغ أيضا، وحسب المصادر فقد انطلقت هجرة مكثفة من الشمال تتكون من الأمازيغ أساسا، وكانت غالبية هذه الأفواج الأولى من زناتة، لأن الزناتيين كانوا أول من أسلم من الأمازيغ، واستمر تيار الهجرة من المغرب نحو الأندلس بدون توقف وبشكل منظم ". [25]

ويمكن أن نقول إن الحضور العربي في هذه الفترة كان ضعيفا في المغرب الأقصى وقويا في إفريقية والأندلس، فالجيوش العربية الفاتحة كانت تتركز أساسا في القيروان كما سبقت الإشارة، ومهما يكن فقد استطاع المغرب على عهد الأدارسة أن يعيش في ظل نوع من الاستقرار ساعد على توطيد الإسلام ونشر اللغة العربية في مناطق غير قليلة من البلاد.

ويلخص عباس الجراري عوامل التعريب في عهد الأدارسة فيقول: " ونستطيع أن نعزو حركة التعريب في هذه العهد إلى خمسة عوامل:

1- حالة الاستقرار التي سادت مناطق نفوذ الأدارسة، خاصة وأن مؤسسهم لم يدخل المغرب غازيا، وإنما دخله لاجئا.

2- عروبة الأدارسة.

3- إنشاء جامع القرويين، والذي كان له دور كبير في النهوض باللغة العربية، لأن المساجد تعتبر مراكز للعلم إلى جانب دورها التعبدي.

4- خروج المغاربة في رحلات علمية إلى المشرق والقيروان والأندلس وعودتهم إلى بلادهم، وقد صقلت ألسنتهم وزودوا بأفكار وعلوم جديدة.

5- كثرة الوفود العربية التي قصدت فاس من الأندلس والقيروان في هذا العهد.

6- عدم مقاومة اللغة البربرية للغة العربية.

7- تقدير المغاربة المسلمين للقرآن الكريم وإعجابهم بلغته وإعجازه.

8- تهجير أفواج من المغاربة في شكل سبي إلى المشرق وعودة بعضهم إلى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية.[26]

والملاحظ أيضا أن المناطق التي استقر فيها الأمراء الأدارسة، وحاشيتهم قد بدأت تحتضن اللغة العربية، ولا أدل على ذلك خطب إدريس الثاني النثرية التي تدل على فصاحته وبيانه وبلاغته[27]. لذلك سارت اللغة العربية في أعقاب السلالة الإدريسية وحلت معهم حيثما حلوا، ولا ريب كذلك أن احتكاك الأمازيغ بالأمويين الذين وضعوا المغرب تحت نفوذهم أزيد من قرن كان له أثر في نشر اللغة العربية بين السكان. ويذهب عباس الجراري نقلا عن أبي زرع إلى تعداد القبائل والأشخاص الذين توافدوا على إدريس من بلاد إفريقية و بلاد الأندلس نحو الخمسمائة فارس [28].خاصة وأن الإدارة الأموية قد جلبت إلى سبتة عددا من الإداريين الناطقين بالعربية، بل إن ما جادت به هذه المدينة من أدباء وعلماء دليل على انتشار الإسلام والتعريب.

وبعد أن شهد المغرب فترة فراغ مهولة أعقبتها اضطرابات كبيرة بعد سقوط دولة الأدارسة، سادت حالة عدم الاستقرار بالمغرب إلى أن جاء عهد الدولة المرابطية، حيث شهد المغرب معها حالة الاستقرار وترسيخا للغة العربية، وجعلها لغة العلوم والإدارة بشكل متسلسل؛ وبعد قرون من الاضطراب والخمول، أتيح للمغرب أن يعرف على عهد المرابطين حياة مستقرة لم تلبث أن خلقت نهضة شاملة أثرت في مختلف مجالات الحياة وخاصة في مجالي اللغة العربية والثقافة الإسلامية ". [40]

ويذكر عباس الجراري بعض العوامل التي ساهمت في نهضة اللغة العربية في هذا العصر مثل:

1- قوة الدولة المرابطية في مجالات الدين والسياسة والاقتصاد، مما نتج عنه جو مناسب لعملية التعلم.

2- الوحدة مع الأندلس وما حملته إلى المغرب من روافد في جميع ميادين العلم والحياة.

3- إنشاء المدارس والرباطات[29] في مختلف المراكز قصد تثبيت الدين والإصلاح الاجتماعي بقصد نشر التعليم وتعميم الثقافة.

4- عناية المرابطين بالثقافة فقد كانوا شغوفين بالعلم محبين لرجاله في كثير من الصدق والتفاني والإخلاص.[30]

إن أغلب الدراسات التي تهتم بهذا الموضوع تغفل الدور الكبير للدولة المرابطية في بلورة واقع التعريب. وتتحدث عن الدور التمهيدي للدولة الإدريسية، ثم تنتقل مباشر إلى الدولة الموحدية لتتحدث عن الإقرار الفعلي الشامل للغة العربية. وكأن الدولة المرابطية لم تكن دولة إسلامية تسعى إلى نشر الدين واللغة معا، بل إليها يرجع الفضل في نشر الإسلام في أغلب القارة الإفريقية، كما تذكر الكثير من المصادر.

إن حركة التعريب سرت بعيدا على عهد الموحدين وشمل التعريب مختلف مناحي الحياة حيث نشط بفعل انتشار اللغة العربية، وازدهار دراستها ودراسة العلوم اللسانية المتصلة بها. وشاعت في لغة التخاطب بين مختلف طبقات المجتمع لدرجة أن من يتتبع المقابلات التي أوردها ابن هشام في كتاب " لحن العامة " بين الكلمات العربية والكلمات المغربية العامية لا يجد الفروق كامنة إلا في المعنى الجديد الذي اكتسبه اللفظ العربي من جراء انتقاله من بيئة إلى بيئة أخرى مغايرة ومختلفة. [31]

ويلخص الدكتور عباس الجراري عوامل انتشار اللغة العربية في المغرب الأقصى في هذه الفترة بقوله: " ونستطيع أن نعزو هذا الانتشار إلى العوامل الآتية: [32]

1. هجرات بني هلال وبني سليم للمغرب، وكان قد استقدمهم المنصور بعد أن قدموا الطاعة إثر انتصاره على حليفهم ابن غانية، وكان لهذه الهجرات أثر كبير جعل ابن خلدون يرى أن " العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن، وإنما انتقل إليه في أواسط المائة الخامسة أفاريق من بن هلال وسليم اختلطوا في الدول هناك فكانت أخبارهم من أخبارها[33].

2 – الوضع اللغوي بالمغرب بعد الحماية

لا يمكن فهم الوضع اللغوي بعد الحماية إلا بربطه بالتعليم الذي يلعب دور ا مهما في ترسيم القيم الثقافية ورسم الخريطة اللغوية والخصوصيات الحضارية للشعوب، فقد عمل الاستعمار في المغرب بكل الطرق على تغيير بنية التعليم والتربية كجزء من مخطط مدروس للفصل بين الإنسان المغربي ومقوماته الثقافية واللغوية. وسنركز هنا على النموذجين الفرنسي والإسباني، ومدى تأثيرهما كاستعمار في صياغة مشاريع إصلاح التعليم بهذا البلد وتكريس هيمنتهما اللغوية، كل ذلك أسهم في تشكيل المنظومة الفكرية والثقافية واللغوية به، والتي تنعكس آثارها بشكل واضح على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مما يتجلى تأثيره المباشر والظاهر حتى في تشكيل الخريطة اللغوية بالمغرب، والذي يؤشر على أقصى درجات التحول اللغوي والانتقال الثقافي في المجتمع المغربي.

ويمكننا أن نحدد محاور المخطط اللغوي التعليمي الفرنسي بالمغرب فيما يلي:

– تكريس التعليم النخبوي.

–تعليم مهني خاصة مهن البناء[34]

– ترسيم اللغة الفرنسية كلغة تدريس عبرها يتم ربط التلاميذ بفرنسا[35].

–تمزيق الهوية الوطنية.

–احتواء وتوجيه النظام التعليمي السائد.

ويتجلى التعليم النخبوي في التمييز بين طبقات المجتمع في تلقي أنماط من التعليم لا تكون بالضرورة ذات توجه واحد، بل تتميز عن بعضها في الأهداف والطرق والوسائل. والقصد من ذلك حسب ما يستفاد من النصوص خلق نخبة تابعة لفرنسيا لغويا وثقافيا تسند إليها على المدى المتوسط والبعيد صلاحية تنفيذ مخططات فرنسا السياسية واللغوية والثقافية، أي خلق نخبة متعلمة من ذوي النفوذ وخاصة

على المستوى الاجتماعي، وتبقى بعد ذلك الجماهير البدوية المتواجدة في جميع أنحاء البلاد التي ليس من الضروري تعليمها إلا بقدر ما يسمح به محيطها الفلاحي، وينفصل عن كل هذا وذاك طائفة اليهود و الأوروبيين الذين يجب الحفاظ لهم على نمط خاص من التعليم يساير كليا النظام الفرنسي دون أن يكون له تأثر بأنساق التعليم التي يراد تسويقها في البلد.

وفي هذا الصدد يقول هاردي أيضاً: " وهكذا فنحن ملزمون بالفصل بين تعليم خاص بالنخبة الاجتماعية، وتعليم لعموم الشعب: الأول يفتح في وجه طبقة مثقفة في الجملة توقفت عن النمو الفكري بسبب تأثير العلوم الوسيطة. إن التعليم الذي سيقدم لأبناء هذه النخبة الاجتماعية تعليم طبقي يهدف إلى تكوينها تكوينا منظما في ميدان الإدارة والتجارة، وهي الميادين التي اختص بها أبناء الأعيان المغاربة. أما النوع الثاني وهو التعليم الشعبي الخاص بالجماهير الفقيرة والجاهلة جهلاً عميقاً فيتنوع بتنوع الوسط الاقتصادي: في المدن يوجه التعليم نحو المهن اليدوية خاصة مهن البناء، وإلى الحرف الخاصة بالفن الأهلي. أما في البادية فيوجه التعليم نحو الفلاحة... وأما في المدن الشاطئية فسيوجه نحو الصيد البحري والملاحة[36]"، أما عن المواد العامة التي ستتخلل هذا التعليم التطبيقي فهي اللغة الفرنسية التي بواسطتها سنتمكن من ربط التلاميذ بفرنسا.

إن خاتمة كلام هاردي تكشف عن قوة العلاقة بين اللغة والثقافة والمجتمع، في مخطط التعليم الفرنسي الاستعماري بالمغرب، وخاصة في قوله: "اللغة الفرنسية التي بواسطتها سنتمكن من ربط التلاميذ بفرنسا"[37]، أي جعل اللغة الفرنسية الأداة الأولى في التواصل، ونقل الثقافة؛ لذلك عمدت السياسة اللغوية في النظام الاستعماري الفرنسي إلى وضع مخطط تمثل في تشجيع التلقين باللغة الفرنسية، والتقليل من مساحة التلقين باللغة العربية، وعدم اعتبار هذه الأخيرة لغة علم، مع الاحتفاظ بها تدريجيا كلغة للتواصل اليومي فقط، على أن يعمل الاستعمار بعد ذلك على الفصل بين العرب والبربر في استعمال اللغة العربية، عن طريق تشجيع استخدام اللهجات البربرية إلى جانب الفرنسية كلغة للتدريس.

ولا شك أن هذا التوجه اللغوي كانت الغاية منه هو إضعاف الروابط القوية القائمة بين اللغة العربية والدين باعتبارها لغة القرآن، وبها دونت أغلب مصادر التراث والثقافة الإسلامية. ويكشف المقيم العام بالمغرب: الجنرال ليوطي عن هذا هذه السياسة اللغوية الواجب تثبيتها داخل المجتمع المغربي، حين أصدر دوريته الشهيرة بتاريخ 1921/6/16م حول لغة التعليم بالمغرب، إذ يقول: " من الناحية اللغوية علينا أن نعمل مباشرة على الانتقال من البربرية إلى الفرنسية، فليس علينا أن نعلم العربية للسكان الذين امتنعوا دائما عن تعلمها، إن العربية عامل من عوامل نشر الإسلام؛ لأن هذه اللغة يتم تعلمها بواسطة القرآن بينما تقتضي مصلحتنا أن نطور البربر خارج نطاق الإسلام"[38]. ومباشرة بعد صدور دورية ليوطي نجد leglay لوجلي ينشر مقالة في السنة نفسها يقول فيها: " إن التعريب سيقود البربر إلى إسلام تام ونهائي، وإلى أن توجد بالمغرب وعلى أيدينا نحن، وهو ما نرفضه كتلة إسلامية منسجمة لا نظير لها. والمشروع يفرض أن يتم تطوير سكان الجبال باللغة الفرنسية المعبرة عن فكرنا، سوف يتعلم السكان البرابرة اللغة الفرنسية وسوف يحكمون بالفرنسية. علينا أن نُقلع في كل مكان عن الحديث باللغة العربية، وإعطاء الأوامر بالعربية إلى قوم هم مجبرون على فهمنا وإجابتنا. ولذلك ينبغي العمل قبل كل شيء على تحويل مصالح الشعب المغربي في اتجاه مصالحنا نحن، وأيضا تحويل مصيره إن أمكن، وليس هذا بدافع عاطفي محض، ولكنه بدافع فهم واضح للهدف المبتغى، والنتائج المتوخاة لصالح قضيتنا[39] "

وقد توخت الدولة المستعمرة من برنامجها هذا بإعلان الظهير البربري سنة 1930م، وهي السنة التي سيكشف فيها النقاب عن منحى آخر للسياسة اللغوية التعليمية الفرنسية بالمغرب، وكان هذا الظهير يهدف إلى الحط بصورة مباشرة من الكيان المغربي وهويته العربية والإسلامية، وذلك بالفصل بين ما كانت سلطات الحماية تسميه بالعنصر العربي من جهة، والعنصر البربري من جهة ثانية، فصلا حضاريا شاملا كان المقصود منه فرنسة وتنصير القسم الأكبر من الشعب المغربي(البربر) ـــ وهكذا قررت فرنسا إنشاء ما سمته بالمدارس الفرنسية البربرية لإنشاء جيل مقطوع الصلة بالتراث العربي الإسلامي متشبع بالتراث الفرنسي والقيم الحضارية الغربية المسيحية[40]، مفتقد للهوية مستعد للتضحية من أجل فرنسا عند أول نداء. وقد أفصحت فرنسا بوضوح عن الهدف من إنشاء هذه المدارس. يقول المسيو

مارتي: "لقد حصل الاتفاق بين إدارة التعليم العمومي وإدارة الشؤون الأهلية، وتحددت بذلك مبادئ سياستنا التعليمية البربرية بكامل الدقة. إن الأمر يتعلق بمدارس فرنسية بربرية تضم صغار البربر يتلقون تعليما فرنسيا محضا ويسيطر عليها خصوصا اتجاه مهني فلاحي. إن البرنامج الدراسي في هذه المدارس يشتمل على دراسة تطبيقية للغة الفرنسية، لغة الحديث والكلام، بالإضافة إلى مبادئ الكتابة والحساب البسيط، ونتف من دروس الجغرافيا والتاريخ، وقواعد النظافة ودروس الأشياء. إن المدرسة الفرنسية البربرية هي إذن مدرسة فرنسية بالمعلمين، بربرية بالتلاميذ، وليس هناك أي مجال لأي وسيط أجنبي. إن أي شكل من أشكال تعليم العربية، أو أي تدخل من جانب الفقيه، أو أي مظهر من المظاهر الإسلامية لن يجد مكانه في هذه المدارس؛ بل سيقصى منها جميع ذلك بكل صرامة "[41].

وبعد هذا التصور التعليمي الذي خطه المستعمر؛ يبقى الإشكال قائما في كيفية التعامل مع النظام التربوي والتعليمي السائد في البلد، وخاصة نظام التعليم بجامعة القرويين، ولم يكن التخطيط لمواجهة هذا الإشكال ليغيب عن خطة المستعمر، ومن هنا يتضح أن التدابير المختلفة المقترحة من أجل تجديد القرويين كانت تحت وصاية الحماية، يقول مارتي في موضع آخر" ومن هنا يتضح أن هذه التدابير المختلفة المقترحة من أجل تجديد القرويين والخاضعة لمراقبة فرنسية دقيقة، ليست أبدا تدابير ثورية، إنها تدابير ستمكننا من توجيه التطور الداخلي لهذه الجامعة، وهو التطور الذي بدأ يعلن عن نفسه من الآن. إن المثل القائل: (لا تحرك من لا يحرك ساكنا) هو بكل تأكيد من أحسن المبادئ السياسية، ولكن عندما يتململ النائم ويهدد بالاستيقاظ فإن الحكمة تقتضي ولا شك أن لا يترك الإنسان نفسه يفاجأ بالأحداث. ولئن كانت جامعة القرويين تضم أسلاك التعليم كلها من الابتدائي إلى الجامعي؛ فإن المستعمر قد وضع مخططاً لبناء تعليم جامعي مواز للقرويين؛ فتم تأسيس معهد عال تحت اسم: (المدرسة العليا الفرنسية البربرية) سنة 1914م، ثم تحول سنة 1920م إلى (معهد الدراسات المغربية العليا) حيث احتلت دراسة اللهجات البربرية والإثنوغرافيا والفلكلور المغربي مكان الصدارة فيه[42]، وقد تحول هذا المعهد إلى كلية للآداب والعلوم الإنسانية غداة الاستقلال. وقد انتقلت هذه الدراسات والأبحاث إلى الأقسام الاستشراقية المتخصصة بفرنسا بعد الاستقلال، وشجعت بشكل كبير عن طريق تخصيص المنح وإمكانات البحث والتأطير المتطورة.

لم يكن لمثل هذه التدابير التعليمية واللغوية التي لا تنفصل في العموم عن السياسة العامة للاستعمار الفرنسي أن تجد مكانا مريحا لها في النظام التعليمي المغربي، إذ كانت مقاومة هذا المخطط جزءا لا يتجزأ من مقاومة الاستعمار بكافة أشكاله. ويمكننا أن نجمل مظاهر هذا الرفض في تجليات أساسية تتفرع عنها جزئيات تجد أثرها في مظاهر الحياة العامة، وتتمثل هذه التجليات الأساسية في:

-زيادة تمسك المغاربة باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن، ووسيلة التفقه في الدين، ووسيلة لإظهار التماسك والتلاحم الوطني في وجه المستعمر. " وبذلك أصبحت المطالبة بجعل اللغة العربية لغة التعليم والإدارة، ولغة كل المغاربة بدون استثناء؛ مطلباً شعبياً، ترفع حوله الشعارات في كل المناسبات الوطنية، بل من المبادئ الأساسية التي ترى فيها الحركة الوطنية مظهراً من مظاهر الاستقلال، وهذا ما أجهض مشروع المدارس الفرنسية البربرية، ومن ثم المشروع اللغوي الذي كانت فرنسا تأمل تحقيقه بالمغرب "[43]

-إجهاض الظهير البربري في مهده عن طريق قيام الحركة الوطنية المنظمة التي خاضت المعارك العسكرية والثقافية ضد المستعمر، بعد أن كانت المقاومة قبل صدور الظهير البربري مقتصرة على ما يشبه حروب العصابات المتقطعة، في أنحاء البلد، بحيث لا يربطها عقد ناظم، ولا تخضع لتصور مشترك، ولا تحمل مشروعاً ثقافياً واجتماعياً يحول دون المسخ الثقافي للبلد.

-وضع مبادئ أساسية لإعادة هيكلة وتحديث النظام التربوي والتعليمي بالمغرب تواجه المخطط الاستعماري، وتتمثل هذه المبادئ في اعتماد مبدأ التوحيد(توحيد أنماط التعليم)، في مواجهة مخطط الفصل، وتعدد أنماط التعليم الذي تحدثنا عنه تحت عنوان (التعليم الانتقائي الطبقي)، واعتماد مبدأ التعريب في مواجهة السياسة اللغوية في النظام التعليمي بالمغرب التي كانت تحاول إضعاف اللغة العربية وتشجيع اللهجات البربرية، كخطوة لتعميم استعمال اللغة الفرنسية.

–إنشاء مدارس وطنية أهلية، سميت (بالمدارس الحرة)، والتي لقيت تشجيعاً وتمويلاً من طرف الأهالي. "وقد افتُتحت أربعون مدرسة في ظرف سنة واحدة، وهو رقم قياسي في شمال إفريقيا، بل حتى في عالم المستعمرات... وتجددت في القرى حملة 1930م (حول التمدرس) وسارت بوتيرة سريعة، وأعيد فتح معظم المدارس التي أقفلت في سنة 1937م، وفتحت مدارس جديدة في بعض المداشر (أي قرى بدوية بالجبال)، هذه الظاهرة قلما شوهد لها مثيل قبل هذا التاريخ[44]، هذا بالإضافة إلى التعليم الممارس في المدارس العتيقة والمساجد والزوايا. وهكذا شكلت المسألة التعليمية ساحة للصراع بين التوجه الاستعماري الفرنكفوني والحركة الوطنية؛ مما يجسد وعياً متقدماً لدى زعماء التحرير بخطورة المعارك الثقافية، بشكل لا يقل درجة عن المعارك العسكرية.

فيما يتصل بشمال المغرب كانت للظروف المتباينة بمنطقة الحماية الإسبانية بسبب الحرب الأهلية الإسبانية، دور أساسي في السماح بتطوير مجال التعليم بالمنطقة، عن طريق تأسيس مجموعة من المدارس والمعاهد هذه المدارس والمعاهد كانت قد أسست قبل هذه المرحلة بكثير، وساهم في تأسيسها بشكل أساسي الرعيل الأول لرجال الحركة الوطنية بشمال المغرب، وعلى رأسهم الحاج عبد السلام بنونة انطلاقا من سنة 1916م[45] ، لذلك عمل فرانكو على إصلاح التعليم بحيث إن حكومة فرانكو لم يكن لها أي تصور عن التعليم المغربي بالمنطقة، حتى يستطيع التحكم فيه خدمة لمصالحه، وعليه تم استصدار مرسوم في 29 يناير 1937م، يحدد الخطوط العريضة للسياسة التعليمية الجديدة، ونص هذا المرسوم على الفصل الكامل بين التعليمين المغربي، ونص المرسوم أيضا على الفصل بين التعليمين المغربي والإسباني، وكان ذلك بهدف تقسيم المغاربة بدعوى احترام الخصوصيات مجموعة من المعاهد الخاصة، منها المعهد الحر الذي أشاد به الريحاني كثيرا، وقد كان من بين الأهداف المضمرة لهذه السياسة التعلمية خلق اختلاف ثقافي وإيديولوجي بين المنطقة الفرنسية والمنطقة الخليفية القابعة تحت الحماية الإسبانية المغرب، يهدف الاستعمار الإسباني في المغرب إلى تحقيق غايات اقتصاديـــة فقط، بل تعـــدّ ذلك لمشروع استعماري متكامل الأركان في إطار هيمنة الغرب على الشرق، فكانت الثقافة والهوية محور الصراع؛ إذ سعى لمحو وإقصاء الثقافة الوطنية وإحلال المشروع الثقافي الاستعماري متعدد الأشكال والأهداف.

عمد المستعمر الإسباني في مجال التعليم إلى إنشاء ثلاثة نماذج من المدارس، هي:

– المدرسة الإسبانية لأبناء المستعمر.

– المدرسة الإسبانية اليهودية المخصصة لليهود في الشمال.

– المدرسة الإسبانية العربية المخصصة لأبناء الأهالي[46].

خاتمة

كان هذا المقال عبارة عن قراءة تاريخية تصب في مجال البحث في الوضع اللغوي بالمغرب خلال حقبتين متباعدتين، إذ أن تعريب المغرب بعد الفتوحات الإسلامية موضوع يكتنفه الكثير من الغموض، فإذا كانت بعض الكتابات التاريخية تجزم بأن حركة تعريب المغرب تمت بعد هجرة القبائل العربية، فإن أخرى ترى أن حركة التعريب سابقة عن هذه الفترة ـــ إذ بدأت في القرن الأول الهجري بفعل رغبة مركز الخلافة في التوسع داخل المغرب والأندلس، وقد نوجهنا في القسم الثاني من هذا المقال إلى الحديث عن الوضع اللغوي بالمغرب إبان الحماية الفرنسية والاسبانية اللتين حاولتا بكل الطرق فرض هيمنتها اللغوية، كما توجهتا إلى إضعاف اللغة العربية من خلال العمل على بناء مدارس ومعاهد كانت الغاية منها فرض الثقافة الاستعمارية وطمس الهوية الوطنية.

الهوامش:

[1]– دور الفتوحات العربية الإسلامية في التحول الحضاري للمغرب، احمد العثماني ص 6 شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع

[2] – المرجع السابق ص 6

[3]– مجمل تاريخ المغرب، العروي ج 1 ص 129، المركز الثقافي العربي 1970

[4]– المرجع السابق ص 128

[5] – المرجع السابق ص 130

– مع مجيء العرب للمنطقة أطلقوا عليها بلاد المغرب حتى تتم المقابلة بينها وبين البلاد الأخرى بلاد المشرق – الفتح الإسلامي لبلاد المغرب عبد العزيز [6]غوردو دار ناشري للنشر اللالكتروني 2011 ص 9

– عبد الرحمان حسن العزاوي تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي دار الخليج الأردن 2017 [7]

[8]– هم من عربوا: بني هلال، راوية الصحابي ص 65، دار العلوم للنشر والتوزيع

[9]– رحلة العبدري، أبي عبد الله محمد العبدري ص206، تحقيق علي إبراهيم الكروي دار سعد الدين للطباعة والنشر ط 1، 1999

[10] – مجمل تاريخ المغرب ص 142

– يذكر ابن خلدون ان من اهم قبائل بني هلال الاثبج ورياح وزغبه وحشم العبر ج 6 ص 19، ويذكر في الصفحة 31 أن الخليفة الموحدي أبو يوسف [11]يعقوب المنصور نقل قبائل رياح إلى المغرب الأقصى ما بين طنجة وسلا

[12]– تاريخ تعريب المغرب الأقصى – المجلد 1 – الصفحة 4 – جامع الكتب الإسلامية

[13]–المرجع السابق الصفحة 4

– يستخلص من الاخبار الواردة من المؤرخين المسلمين والمتصلة بالفترة بين 81-148 ه أن ثورات تتابعت البربر مما يدل ان الفتح العربي لم يحل أي [14]مشكلة من مشكلات المغرب – مجمل تاريخ المغرب ص 139

[15]– القصيدة عباس الجراري ص 85

–الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ص 38، الدكتور محمد إسماعيل عبد الرزاق، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ط 2، [16]1985

[17]– القصيدة مرجع سابق ص 86

[18] . – الأدب المغربي ابن تاويت ص 25، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط 2

[19] – النبوغ المغربي ص 41 عبد الله كنون دار الكتاب اللبناني بيروت د ت

– تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي ص 70 – 71، رحمة تويراس، مؤسسة الادريسي الفكرية للأبحاث والدراسات، الدار [20]البيضاء المغرب 2015

[21] – تعريب الدولة والمجتمع ص 55

[22]– الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى أبو العباس شهاب الدين الناصري السلاوي ج 1 ص 287 دار الكتب العلمية

كتاب الأنساب ص 91، ابن عبد الحليم الأيلاني، تحقيق مصطفى يعلى، ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد 1996

– طبقات علماء إفريقية وتونس ص 35، أبو العرب أحمد بن تميم القيرواني، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي ـــ الدار التونسي -

1968

38– فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية ص 127، حسن مؤنس، الدار السعودية، ط 2، 1985

[26]– القصيدة: الزجل في المغرب ص 90 – 91 عباس الجراري

[27] – أدب الأدارسة عبد العزيز الساوري مجلة دعوة الحق العدد 240 شتنبر 1984

[28] – القصيدة عباس الجراري ص 88 – 89

[29] – الرباط مدرسة دينية يجتمع فيها العلماء والصالحون الحركة الدينية في عهد المرابطين دعوة الحق العدد 55

[30] – القصيدة مرجع سابق ص 91- 92

[31] – القصيدة ص 92- 93

[32] – القصيدة ص 93

[33]– تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 4

[34] – الجابري أضواء على مشكل التعليم بالمغرب ص 19

[35] – الجابري، محمد عابد، أضواء على مشكل التعليم بالمغرب ص 19 دار النشر المغربية 19851

[36]– الجابري المرجع السابق ص 19

[37]– الجابري أضواء على مشكل التعليم بالمغرب ص 19

[38]–السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل ص 22 مادي لحسن منشورات مجلة علوم التربية 4 الطبعة الأولى 1999

[39]–مادي لحسن السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل ص 23

[40]– الجابري مرجع سابق ص 29

[41] – مادي لحسن مرجع سابق ص 24

[42] – المرجع السابق ص 22

[43] – السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل مرجع سابق ص 26

[44] – السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل مرجع سابق ص 33

[45] – جوانب من الحماية الإسبانية في المغرب ص 123 مراد المعاشي دورية كان التاريخية العدد التاسع والأربعون 2020

84 – بعض ملامح السياسة الاستعمارية الإسبانية في المجال الثقافي، مجلة البيان رابط المادةhttp://iswy.co/e2btn0 :